العرب
الأربعاء 2020/02/12
السنة 42 العدد 11615

روايتي الجديدة مسرحها لبنان حبا في الطبيعة والحرية والجمال

الروائي العراقي نزار عبدالستار: الكتابة تخلق الالتباس وتُنتِج الأسئلة

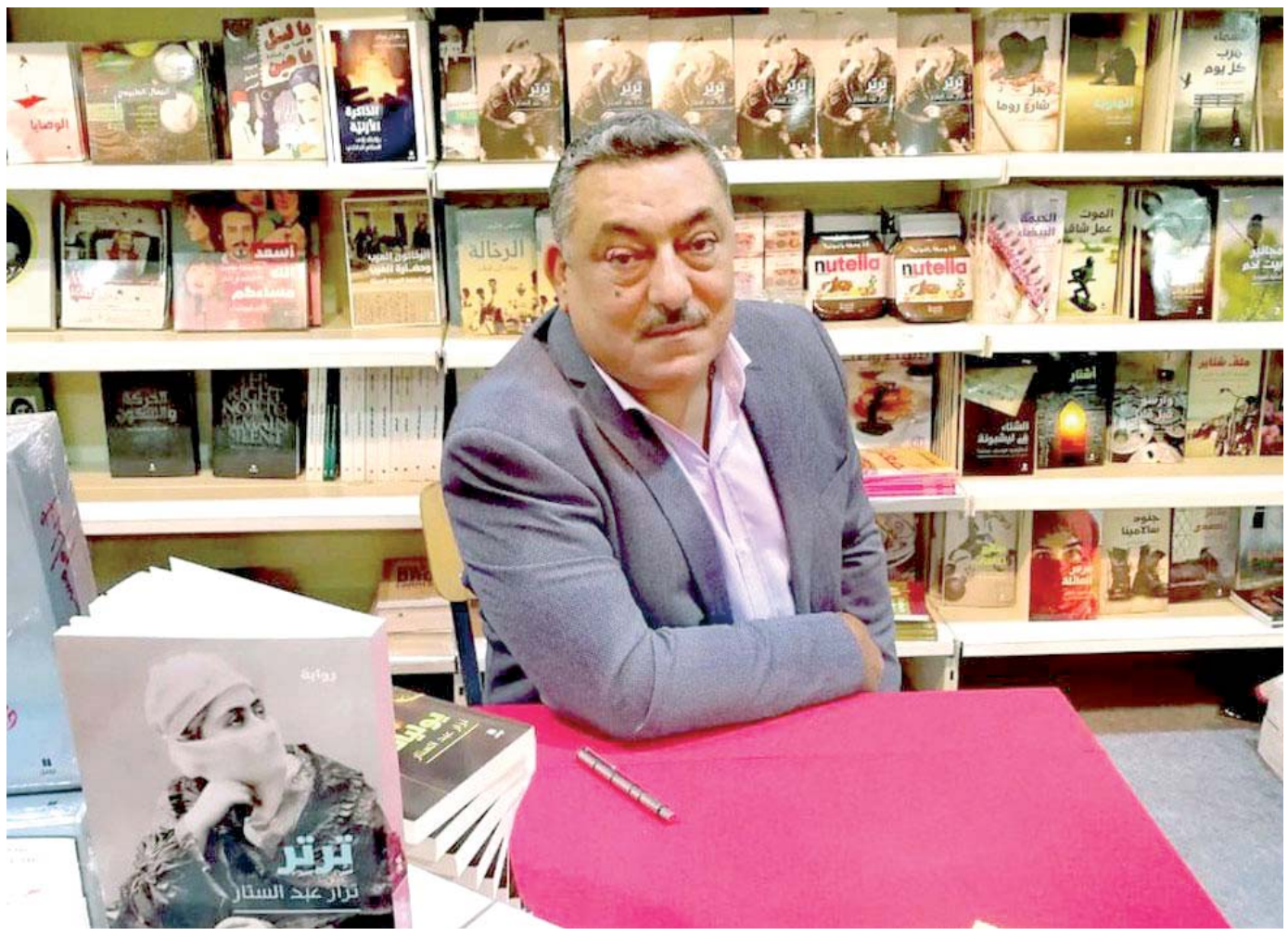

الروايات السياسية العربية غالبيتها مزيفة

عُـرى وثيقة تربـط المُبدِع بمُجتمعـه وقضاياه وإشـكالياته، الراهن منها والمنقضي. بيد أن الإغراق المباشـر في مُشكلات الواقع وصراعاته يخلق أعمالًا روائية هزيلة فنيّا وتغلب عَليها المباشـرة والتقريرية، ومن ثم يتعين علـى المُبـدع أن يخلق توازنًا فـي عمله بحيث لا يُقصيه عـن واقعه وفي الآن ذاتـه يقيه من الضعف الفني. "العرب" حاورت الروائي العراقي نزار عبدالستار حول روايته الجديدة "مسيو داك" التي تنحو منحىً مختلفًا في التعامل مع الواقع الراهن.

حنان عقيل
كاتبة مصرية

تـدور أحـداث رواية "مسـيو داك"، الصادرة حديثًا عن دار هاشيت أنطوان لنزار عبدالسـتار، في أماكن لبنانية ما بيـن بيـروت وحمّانا وبمهربـه، تعمل الرواية على تعزيز رؤية غير تقليدية في التعامل مع الواقع، بدءا من موضوعها الـذي يركـز علـى التـراث والحضارة والطبيعـة الغنـاء فـي لبنـان وإهمال التوتـرات السياسـية التـي تعج بها المنطقة العربية.

وهنا يلفت عبدالستار إلى أن الروائيين العـرب يقلـدون بعضهـم البعـض ويسـيرون في الدرب نفسه بلا أي واعز بالتغييـر، والشـيء الأكثر سـوداوية أنهـم يشـيعون الكآبـة ويحتاجون دائما إلـى حروب وثورات وانتفاضـات كـي يكتبون الروايـات. فالتركيبة الإبداعيـة العربية منتمية إلـى الأسـطر المسـتقيمة وهذا مـا تتطلبه المفاهيم الاجتماعية الراسخة، وكذلك الثقافـات الرسـمية للبلدان التي تمنح الجوائز الأدبية.

يتابـع، مع رواية "مسـيو داك" كسـرت هـذا التابـو وقد فعلت الأمر نفسـه فـي روايتي "يوليانـا" و "ترتر". أنا أؤمن بالمعرفية التـي تمنـح المتلقي إمكانية تشـجيع القلب وحل عقدة اللسان. نحن كشعوب شـرقية تدعـي الالتزام، نخفـي ميولنا التحررية ونعتـدي بالتشـويه علـى أسـاليب الحياة التي تقاطـع طمأنينة القطيع، ونكتب الكثير من الروايات مع كل حرب تقع، وأنا لسـت ضد هذا الأمر من ناحية الاسـتحقاق الإنسـاني ولكن من العقم أن تتلبسـنا همجية الحروب وتتملكنا الثرثرة السياسية.

الحروب العراقية والسـورية خلقت الكثيـر من المآسـي إلا أنني لسـت مع السـوداوية التي تميل إلـى طرف دون آخـر. الكثير من الروايات مدانة بالزيف لأنها تكتب لأغراض سياسـية، وبنوايا غير فنية وتديم التسطح. "ليلة لشبونة" لريمـارك هي رواية إنسـانية في المقام الأول وهـذا مـا تفتقـر إليـه الروايـة العربية. "مسيو داك" تختلف تماما عن السائد وهذه هي الرواية التي أؤمن بها.

خلق الالتباس

يـرى عبدالسـتار أن الرواية رهينة وعي كاتبها وإحساسه، والأعمال الأدبية في العمـوم لا تُكتب إلا بحافـز التيقن وهـي لصيقـة بالمنظومـة الأخلاقيـة والفنيّة للكاتـب، فالروايات لا تُكتَب من فـراغ، ولكن قربها مـن الحياة لا يعني أن أحداثها حقيقيـة. بالتالي، فالكتابة الجيدة تخلق الالتباس وتُنتِج الأسـئلة وتحـوم حولها الشـكوك. ووظيفة الفن إزاحـة انطباعاتنـا التقليدية عن الحياة، فكل شـيء يمكن أن يختلف إذا ما غيرنا زاوية نظرنا إليه.

يتحدث عبدالسـتار عن الأسـباب التـي دفعته إلى الكتابـة عن مُدُن لبنانية في روايتـه الجديدة قائلًا "وقعت فـي غـرام لبنان ككل الذيـن يقدسـون ثالـوث الطبيعـة، والحريـة، والجمـال. عثرت على بلدة بمهريـه أولا ثم حمّانا التـي وجدتهـا متطابقـة مع شـغفي. لقد وجـدت حمّانـا تشـبهني. نحن لا نعثـر على باريـس ولنـدن وروما، لأن هذه المـدن كبيرة كالأحـلام، لذلك هي معلومـة حتـى لو لـم نزرهـا، أما مع البلدات الصغيـرة التي تظهر لنا فجأة فالأمـر يختلف تماما. أسـرتني حمّانا، ووجدتها تُشـبه الأشـياء التي ضاعت مني. في أحيانٍ كثيرة الرواية هي التي تخلق نفسـها حين تتجمع كل العناصر في ورشة العقل".

تقوم رواية "مسيو داك" على علاقة حُب وارتبـاط غير تقليدية بين البطلين رُبى وزيـاد اللذين أطلق عليهما الكاتب مسيو ومدام "داك" إشارة إلى شخصية "داك" في ديزنـي، وترتكز على رحلتهما المُشـتركة في التعامل مع أزمة الحشرة MEVIA التـي تهاجم حدائق الكرز في بلدة "حمّانا" اسـتنادًا إلى إيمان قوي بطاقة الحب وقوة الحضارة.

يُبيـن عبدالسـتار أنه قد اسـتعان بكل مكونات الهوية اللبنانية لتسـليط الضوء علـى فكرة الطبيعـة باعتبارها البديل والحل معا، فالكثير من الروايات تناولـت الحرب فـي بيـروت والحياة الصاخبـة فيها ولكنه ذهـب إلى حمّانا ليقول أن بالإمـكان محاربة كل الظروف الصعبة بطاقتي الإيمان والحب. كما أن الحشـرة MEVIA التي تهاجم جنينة الكرز فـي حمّانا هي كناية عـن الإصرار الذي نتلقاه من التعكير.

ويضيـف، بلداننـا تعيـش بقانون الأزمـات، وإذا مـا بقينا نعتـاش على هذا الصراع السياسـي البليد فلا شيء يمكن أن يتغير. في "مسـيو داك" أردت القول أن بإمكاننـا دوما إيجاد القضية والمضـي إلـى الهـدف وهـو الحيـاة الجديـدة القائمـة على الحـب. كما أن العودة إلى الجـذور الحضارية تمنحنا معرفـة دقيقـة بأنفسـنا وتخلصنا من التشويه الذي نعيش فيه.

ربـى وزياد في الروايـة التقيا على قصة أدونيس وعشتروت، وهو حب لابد له من صنـع الإرادة. في كل لقاء توأمي بين المرأة والرجل هناك فعل يرتقي إلى مستوى المعجزة. نحن البشر نعمل في سـعينا إلى المباهج على رفع مسـتوى الطاقات وهذا يساعدنا في انتظار الغد. فمن يتابع القنـوات الإخبارية اللبنانية ويذهـب بعدها إلى جبـل لبنان لابد أن تصيبـه الصدمة فلاشـيء يسـتوجب حـدوث كل هـذه الفوضـى. لبنان مثلا تملك مقومات تفردها كطبيعة وحضارة وهذا مـا على اللبنانييـن التركيز عليه بدل الخوض في إشكالات ضبابية، وهذا ما تقوله "مسيو داك".

أصـدر عبدالسـتار عملـه الأول في التسعينات، وينوه بأنه منذ العمل الأول "ليلـة الملاك" وهـو يسـعى وراء آلية اشتغال بشأن يوتوبيا زمانية ومكانية، من ثـم يمكن القول إن مشـغله الروائي وحتـى القصصي بُني علـى مرحلتين، ومُجمـل ما فكر فيـه وتـدرب عليه في الأعمال الأولى اسـتعان به في المرحلة الثانيـة التـي تبـدأ بروايـة "يوليانا" الصـادرة عـام 2016 ببيـروت عـن دار هاشيت أنطوان.

فهو يؤمـن بالهويـة الفنية ويعني بهـا أننا نحتـاج إضافة إلى الأسـلوب وصناعـة النص إلى عوالم تتشـكل من الذات المتفردة للكاتب، لذلك لا يصح أن تتشـابه الروايات، ومن غير المُجدي أن يكون نسخة من كاتب آخر.

ويسـتطرد، "مسـيو داك" تختلـف كثيـرا عن رواياتي السـابقة وقد تفاجأ بهـا القراء في العـراق ولكنهم تقبلوها باهتمام، ولا يختلف الأمر على مستوى القراء اللبنانيين واعتقد أنها نجحت في جذب القراء بسبب موضوعها المغاير.

> الرواية محاولة للابتعاد عن الأجواء المكرورة وبعض القراء اللبنانيين وجدوا أنفسهم في مواجهة شيء لم ينتبهوا إليه من قبل

كنـت حريصا علـى أن تكـون هذه الروايـة إضافة جديدة ليـس فقط على مسـتوى التاريخ الروائي العربي وإنما على المسـتوى القرائي، فهـذه الرواية ليسـت سياحية كما أن الكثير من القراء اللبنانيين وجدوا أنفسـهم في مواجهة شـيء لم ينتبهوا إليه من قبل، وهذا هو التحـدي الأكبر بالنسـبة للجدية الفنية التي ظهرت عليها الرواية وحجم الإقناع الذي حققته.

البناء الدائري

على مستوى الشكل، لم يتبع الكاتب في روايته "مسيو داك" البناء الخطي أو التصاعدي في السرد، فتبدأ الرواية في المكان الذي تنتهي فيه، وتأتي الأحداث بشـكل غير متسلسـل أو متتابع ليُعيد القارئ تشكيلها في ذهنه.. وهنا يوضح عبدالسـتار أن البناء يلعب الدور المهم فـي الروايات القصيـرة، وعمليا وعلى غيـر المشـاع يحتـاج ضمير المتكلم فـي الرواية إلى تكنيك مكثـف لموازنة شـخصية الرواية مع المتلقي، فمن غير المنطقـي أن تـروي الشـخصية كل ما تعرفه عن نفسـها، لهذا فالبناء الدائري هو الأفضل ويسـتهويه بشكل شخصي لأن فيـه مهارة ورشـاقة كبيرة، ويجعل ذهنيـة القـارئ متحفـزة وحاضرة في التفكير، مشـيرا إلى أنه أثناء الكتابة لا يستطيع التفكير بأحد.

ربما يفعل هذا بعد المسودة الأولى، لكنـه يعتقد أن مسـألة التفكير بالقارئ هي جزء مـن بنية الكتابـة الاحترافية، خاصـة إذا ما ارتبط هـذا بنمو قرائي. فمـع كل روايـة جديـدة هنـاك مبحث للتلقي وهذا يترسـخ في ذهنه ويصبح جزءا من حرفيته الكتابية.

هل بات العرب خارج تاريخ العلم نهائيا؟

حسن الوزاني
كاتب مغربي

تبدو آخر المعطيات التي تخص وضعية البحث العلمي بالعالم العربي صادمة، وإن كان الأمر لا يحمل أي مفاجأة. إذ أن الوضعية كانت دائما قاتمة، ومعاكِسة لما يعرفه العالم من تراكم مذهل ومتواصل للإنتاج العلمي والفكري والثقافي، تؤسسه ملايين العناوين الصادرة عبر عواصم العالم الثقافية. ولعل من باب الصدفة أن تصدر، بشكل متزامن، حزمة تقارير، يجمعها رسمُها للصورة القاتمة للإنتاج العلمي العربي، مع اختلافها على مستوى المؤشرات المعتمدَة ومناهج تحليل المعطيات. وإن كانت كل التقارير لا تحمل وصفة للخروج من هذه الوضعية، لسبب بسيط هو أن لا وصفة للأمر. ذلك لأن دخول مجتمع المعرفة والإسهام فيه هو رهين مسار طويل، قد يتجاوز حسن النوايا والمجهودات الفردية.

لا يبدو غريبا أن نعود لنكتشف من جديد مع كل عام ملامح الخلل على مستوى الحياة العلمية في العالم العربي، سواء من خلال تقرير "البحث العلمي والابتكار بالعالم العربي"، الذي أنجزه الباحثان أحمد أزيرار وهشام بوطراشح، قبل أسابيع لصالح مؤسسة علمية مغربية وهو المعهد الملكي للدراسات الإستراتيجية، أو من خلال تقرير "الابتكار أو الاندثار" الذي أطلقته مؤسسة الفكر العربي. وذلك بالإضافة إلى "تقرير اليونسكو للعلوم: نحو 2030".

إن إسهام مجموع الدول العربية الاثنتين والعشرين، لا يتجاوز بالكاد الاثنين في المئة مما يُنتج على مستوى الإنتاج العلمي الكوني. وإن كانت بعض الدول العربية المحدودة قد حققت تطورا نسبيا، كما هو الحال بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية التي بدأت تسحب الريادة من مصر. ولعل ذلك ما يؤكده التقرير الحديث الخاص بمؤشر نيتشر الذي يهم السنة السابقة. وإن كانت منشورات البلدين لم تتجاوز، منذ بداية العقد الأول من الألفية الجديدة، العشرة آلاف عنوان سنويا. وذلك في اللحظة التي تعجز دول أخرى عن الرفع من إسهامها العلمي، حيث تكتفي بلدان كالإمارات العربية المتحدة والمغرب وتونس بأقل من نصف عدد هذه العناوين. أما الدول الصغيرة، كجزر القمر ودجيبوتي والصومال، فلا يتجاوز إنتاجها بالكاد الخمسين عنوانا سنويا.

أما الأمر الغريب فيكمن في التباين الكبير بين عدد المنتجين المفترَضين العرب وبين إنتاجهم. وهو ما توضحه حالة المغرب، على سبيل المثال. إذ أن الجامعة المغربية، برغم حداثتها، تمكنت من مراكمة عدد هام من الباحثين. وقد انتقل عددُهم من ستمئة أستاذ خلال منتصف ستينات القرن الماضي، إلى ما يقارب العشرين ألف أستاذ خلال السنة الجارية. غير أن ارتفاع عدد الأساتذة الجامعيين لم يُترجم، بشكل كبير من خلال حجم إنتاجهم، وذلك بالرغم من أهمية الإسهام البارز للجامعة على مستوى تحديث المناهج والأفكار.

وارتباطا بذلك، وحسب الدراسة التي كنتُ قد أنجزتها حول قطاع الكتاب بالمغرب، لم يتجاوز عددُ العناوين الصادرة في مجالات العلوم الحقة والعلوم التطبيقية والطب والصيدلة، في بداية العقد الأول من الألفية الجديدة، المئة كتاب. وذلك في الوقت الذي كان عددُ الأساتذة الجامعيين المشتغلين في هذه المجالات، خلال نفس السنة، يقارب الخمسة آلاف أستاذ.

ولعل الأمر نفسه يهم بقية المجالات العلمية الأخرى، وبدرجات متفاوتة أحيانا. حيث نجد أن إنتاج الباحثين المغاربة المنتسبين إلى جامعة محمد الخامس الشهيرة، في مجال الكيمياء، الصادر خلال حوالي أربعين سنة، لم يتجاوز بالكاد، حسب الباحثة فاطمة بيزكارين، الألف مقال وإسهام في أعمال مؤتمرات. بينما لم يصدروا أي كتاب. في حين يعود ثلثا الإنتاج في مجال العلوم الاجتماعية، الصادر ما بين الستينات ومنتصف تسعينات القرن الحالي إلى سبعة باحثين فقط.

> مساهمة الدول العربية الاثنتين والعشرين، لا يتجاوز بالكاد الاثنين في المئة مما يُنتج على المستوى العلمي الكوني

وبشكل مضاد لأهمية تطوير البحث العلمي وتطور إنتاجية باحثيه، سيُقدم المغرب، مع بداية الألفية الجديدة، على عملية شبه انتحارية، مع إطلاق ما يعرف بالمغادرة الطوعية. وإذا كان الهدف منها هو تقليص الأجور، غير أن تدبير هذه العملية تم بشكل غير مدروس. وكان من أول ضحاياها هو الجامعة. إذ سيختار أكثر من عشرين في المئة من الأساتذة الباحثين، مغادرة الجامعة ومعها البحث العلمي، تحت إغراء التعويضات المقدمة. وبذلك فقدت الجامعة المغربية جيلا بكامله دون التفكير في الجيل البديل. أما الطريف فهو كون مهندسي برنامج المغادرة الطوعية قد اختاروا كشعار للبرنامج: "انطلاقة"!

وخارج هذه الحالة، تبدو وضعية البحث العلمي العربي مفارقة لعدد من نقاط القوة التي يمنحها السياق العربي العام. وعلى رأسها التراكم الذي حققه العرب، خلال قرون، على مستوى إنتاج المعرفة العلمية والاهتمام بالبنيات الخاصة بتداولها. وذلك سواء من خلال حلقات التدريس بالجامعات العريقة أو من خلال المكتبات. ولعله نفس الأمر الذي كانت تمثله قدرة المؤلفين المذهلة على خلق تواصل مدهش بين مؤلفاتهم، في لحظة لم تكن هناك أدنى شروط للتواصل.

وهو الأمر الذي تعكسه مؤلفات الفهارس، التي تشكل مصدرَ معلومات يمنح إمكانية رسم شجرة انسياب المعرفة ومسارات تداولها. وسيكون هذا السبق وراء انتباه البحث العلمي في الغرب، ابتداء من ستينات القرن الماضي، إلى أهمية الاستشهادات المرجعية، باعتبارها وسيلة لتقييم حركية الإنتاج المعرفي والعلمي. بل سيشكل هذا الاهتمام بالاستشهادات مجالا علميا مستقلا، له مناهجه، وعلى رأسها المنهج الببليومتري القائم على تطبيق الإحصاء على الإنتاج المعرفي المكتوب.

لا وصفة جاهزة لحل علل البحث العلمي العربي، لكن التماهي في التموقع في ذيل ترتيبات الدول هو الوصفة السريعة للخروج من مجتمع المعرفة، الذي لم ندخله بعد!

لا وصفة جاهزة لعلل البحث العلمي العربي